

الدلالة الفينومينولوجية للمنهج

د. عبد القادر بودومة

جامعة تلمسان

العدد الثاني فيفري 2014

التي انتهت إليه عدمية نيتشه، إن ما منحته الفلسفة "النيتشوية" لهوسرل لا يمكننا أبدا حصره. مثال ذلك: "قولها بعدم وجود فلسفة محضة، فالتراث الفلسفي و منذ بدء الإغريقي كان ولا يزال مليئا بالتضاديات"¹، إذ تأخذ الفينومينولوجيا على عاتقها الدور نفسه الذي سبق، و أن مثلته الفلسفة الأولى ففي الواقع: "و بعد أن أتم نيتشه و أنجز كل إمكانات الميتافيزيقا التقليدية، تجد الفينومينولوجيا ذاتها أمام أساسات نظرية مغايرة تبشر ببدء جديد.² ذلك لأن كل فينومينولوجيا بقول جاك دريدا J.Derrida: "إنما هي سير دائم نحو نقطة البدء، فالفينومينولوجيا تقليد عريق، عرف ميلاده بصورة سابقة، أي قبل التأسيس النسقي المنجز من طرق هوسرل، وتحديدًا منذ إ.كانط E-Kant إذا كانت لحظتها تدل على ما للشيء من احترام (تحديد، ظهور الشيء) باسم الشيء نفسه، إن ظهور الشيء يمثل ما هو ظاهر و أن مفهوم الظهور apparaitre هو في آن معا بسيط، وملغز³.

هنا تكمن ضرورة تحقيق نوع من التبسيط من خلال الابتعاد عن الافتراضات و الأطروحات المغرقة في التنظير، حيث سبق و أن أشار هوسرل بأن الفينومينولوجيا "سلوكا

1 Marion J.L: Réduction et donation essai sur Husserl, Heidegger et la Phénoménologie Paris PUF 1989, p 06.

2 Marion J.L: ibid p 07.

3 Derrida (J) Sur parole Paris Seuil 1996 p68

يتمتع الحديث عن الفينومينولوجيا ما لم يتم إحالة خطابها على سؤال المنهج، إذ يظهر هذا الأخير قدرتها على التمكن من تأسيس حلمها الموعود، في أن تصير علما صارما، لكن إقامة هذا العلم لا يستقيم إلا إذا قمنا باكتشاف التعدد والاختلاف الموسومة بهما الفينومينولوجيا نفسها، لكونهما يسهمان في تفعيل سؤالنا حول إمكانية إحداث مطابقة جوهرية بين المنهج وموضوعه. لقد شقت الفينومينولوجيا طريقها نحو التأسيس لهذا العلم في الفترة نفسها التي توفي فيها "نيتشه" Nietzsche أي في سنة 1900، السنة التي ظهر فيها و لأول مرة المشروع الفينومينولوجي إلى الوجود مع إتمام "هوسرل" عمله الفاتحة: œuvre percée "البحوث المنطقية" العمل الذي أعلن من خلاله عن ميلاد الفينومينولوجيا باعتبارها علما كليا "mathesis universalis"، أي الفلسفة التي تحدث تطابقا مع مضمون علمها.

من هذا المنطق يمكنني السير في الاتجاه الذي يؤكد من خلاله "جون لوك ماريون" J.L.Marion بأن بدء هوسرل هو منتهي نيتشه. فعمل الأول يقترب بكثير من الأطروحات

نفسه مع اللمس والسمع³. إذ باسم احترام ما يظهر مما يظهر نجد هوسرل يحترم في الوقت ذاته المعطيات اللا مرئية ، السمعية و اللمسية للتجربة الحسية .

لهذا رأينا أن الفينومولوجيا تحمل قدرة هائلة على إيجاد مواضعها و لا تأبه بمجيئها نحوها . فهي دائما تجد لنفسها مصادر إضافية تنمي و تغذي من خلالها الأسئلة التي نود التوجه إليها . الفينومولوجيا لم تقصي و لم تكن أبدا ندا عنيدا لشكل معين من الميتافيزيقا ، و لا للميتافيزيقا عموما⁴ . نحن نعلم أن هوسرل و في سعيه لإقامة مشروعه في أن تغدو الفينومولوجيا العلم الكلي كان يضع عمله باستمرار موضع النقد الجذري ، و هذا ما كان منه عندما أقام نقدا ضد مبدئه الذي طالما أصر على نجا عته الإجرائية و خاصة داخل منهج القصدي . المبدأ الذي اقر ضرورة العودة إلى الأشياء نفسها . القانون الحدسي المجسد للإنعطاء المطلق في ذاته . أي في حضوره .

ثمة أعمال يعترف من خلالها هوسرل عجز هذا المبدأ عن قدرته في الخوض في بعض القضايا سواء أعلق الأمر بالزمان أو بالآخر .. الخ. و من هذا المنطق سنجد هوسرل يتحامي على منهجه الأول المتمثل في : منهج

3 Derrida J : sur parole ibid. p6

4 J.L.Marion: La science toujours recherche et toujours manquante, in La métaphysique son histoire, sa critique, ses enjeu , sous la direction .J.Marc Marbonne , et Luc Langlois , Paris , J, Varin , 1999.

إيجابيا" geste positif . أي السلوك الذي يعلم جيدا كيف يتحدى و ينتصر على كل الأحكام المسبقة ، قصد التمكن من الرجوع إلى الظاهرة عينها ، والتي لا تدل على أنها مجرد حقيقة الشيء ، و إنما تعنى بالإضافة إلى ذلك حقيقة الشيء بما يظهر عنه . فال "فاينستاي" phainesthai : " تعنى الظهور في بريقه و لمعانه في مرئية الشيء . فعندما أصف أي ظاهرة فإنني لا أقوم لحظتها بوصف الشيء نفسه أي ظهوره ، وإنما ظهوره بالنسبة إلي بما هو يظهر لي . هنا تبدو صعوبة تكمن في إمكان فصل حقيقة الشيء عن ظهور الشيء ذاته¹ . " إن الشيء يظهر لنا و عليه فهو الشيء ظاهر . و تقوم الفينومولوجيا و عبر الإرجاع² la réduction بوصف هذه الطبقة من الظهور ، أي ليس الشيء المدرك، وإنما الوجود المدرك للشيء. فال "فينستاي" عيار الظاهرة التي تظهر في الضوء ، هكذا بالذات يظهر الشيء . لكن هذا لا يعنى أبدا القول أن الفينومولوجيا تمنح الامتياز المطلق للرؤية ، ذلك لأنه بإمكاننا يقول " دريدا " : " عمل الشيء

1 جاك دريدا : إيمان و معرفة منبعها الدين في حدود العقل وحده ضمن عمل جماعي : الدين في عالمنا تحت إشراف جيانى فاتيمو . ترجمة محمد الهلاي و حسن العمراني دار توبقال الدار البيضاء المغرب 2004 ص 14 و 15. Heidegger M Etre et temps traduit de l'Allemand par Vézina(F) Paris , Gallimard passage 07p52.

2 من الخطأ النظر إلى الإرجاع باعتباره مجرد إجراء أو تقنية يتوغل داخل الظواهر منجزا فهما لها ، ذلك لأن لو حصل و جعلنا منه كذلك فإنه ستتعتل لحظتها أهميته ، و يصير لا طائل من اللجوء إليه .

القصدية ، منعطفاً نحو منهج الرد . ما جعلنا نركز انتباهنا بالبحث و الدراسة على أحد أهم القضايا للمشروع الفينومينولوجي التي لا تزال مؤجلة الحسم.

يطرح سؤال المنهج بصورة واضحة و بحدة داخل الفينومينولوجيا أكثر من أي فلسفة أخرى ، و لا يعكس السؤال نوع من التورط الفينومينولوجي في مأزق لا منفذ منه ، و إنما هو سؤال تجد فيه هاجسها المحقق لبقائها الدائم ، لكونه يجرى باستمرار التعجيل بزوالها ، و في آن معا يؤخر دائما تحقيقها و انجازها النهائي. لأن في تحقيقها سقوط كما يشير "بول ريكور" P.Ricoeur في آل "ism" أي في الدوغمائية المذهبية. فهي مشروع اللا مشروع ، برنامج لا يعرف له اكتمال على خلاف الأنساق المعرفية السالفة ، و التي كانت في مجملها تعجل بزوالها بإحداثها انغلاقاً لأفقيها. إن الفينومينولوجيا لا يمكنها : "أن تعرف تأسيسها المطلق و النهائي إلا من خلال ذلك الذي يحدها . لم لا¹ . إذ عندما نتحدث عن إمكان وجود منهج يتطابق مع الفينومينولوجيا فإننا لا نقصد أبداً المنهج مثلما حددته النظريات العلمية ، والفلسفات الكلاسيكية ، و التي رأت في المنهج مجرد أورانغون المعرفة ، يتناول بالبحث و الدراسة مواضيع خارجة و بعيدة عنه.

فالأمر لدى هوسرل يحدث بكيفية مخالفة جذريا ، بحيث يسير في اتجاه التنقيب و الحفر عن منهج محض يتماثل مع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية. طبعاً حلم التأسيس لعلم كلي هو حلم هوسرل أولاً ، و هو بالإضافة إلى ذلك حلم الفينومينولوجيا ككل ثانياً . إذ نجد كل الفينومينولوجيات تحاول التثبت بهذا الموضوع في أن تصير الفينومينولوجيا بديلاً عن نظرية المعرفة الكلاسيكية و أن تغدو في ذاتها الفلسفة عينها . لهذا نجد هوسرل يحرص دائماً على التذكير بضرورة طرح أسئلة الفينومينولوجيا في أوج يقظتنا ، و انتباهنا لسؤال استئناف البدء ، وذلك بدعوى التأسيس لبدء جديد . فهو سرل ينفي أن يكون للفلسفة بدؤها المطلق ، إذ و منذ الوهلة الأولى حدث تصدع عندما حاولت النظريات العلمية و الفلسفية ، إحداث تفريقاً بين ما لا يفرق التفريق بين العلم والفلسفة ، إذ تم تعيينهما و منذ اللحظة الإغريقية بأتهما شيئاً واحداً.

تجعل دراستنا من سؤال المنهج المنطلق الحقيقي لإنجاز طموح معاودة تتم مع ربط الفلسفة و العلم ، لأننا رأينا بأنه سؤال يطرح و بصورة متكررة و عنيفة في كل الفينومينولوجيات ، و لا نرى في جذريته نوعاً من التورط في مأزق انسداد الأفق . بل رأينا فيه (أي سؤال المنهج) منفذاً نحو جعل منه كما يقول بول ريكور : "مصدر المغذي ، والذي

1. Ricœur P : A l'école de la phénoménologie, Paris J.vrin , 1986 , p 141.

مرجئة التحقيق . فسؤال الأساس يقيم حركة تحذير متقدم لسؤال الأصل نفسه . ولقد حاول هوسرل البحث عنه في بداية الأمر داخل الأعمال المرتبطة بالرياضيات و المنطق ، حينما كان يتابع دراسته لدى أسماء رياضية ، و منطقية بارزة ، والتي كان لها الأثر البالغ على التوجهات هوسرل الفكرية . إذ نجد مثلا : العالم الرياضي "فيشراشتراس" Weierstrass الذي كان له الإسهام الجليل في إقامة النظرية الحديثة للدوال ، و طور بالإضافة إلى ذلك نظرية الحساب اللانهائي ، و كان أول من اقترح إمكانية الجمع بين التحليل analyse و الحساب calcul . و إكتشف أن التحليل هو العلم المؤسس فقط على مفهوم العدد ، لكن من الضروري انجاز تحليلا خاصا لمفهوم العدد نفسه² . و اهتم هوسرل بعد ذلك بأعمال أستاذه و صديقه "فرانز برانتانو" ، منجزا أعمالا حول : "مفهوم العدد و التحليلات السيكلولوجية" ، وفي مدخل هذا العمل نجد هوسرل يذكر أهمية الرياضيات على الفلسفة ، فالرياضيات حسب هوسرل : "تدخل في اتصال مع الفلسفة قصد التمكن من إيضاح مفاهيمه الخاصة"³ .

مع برنتانو سيكتشف الطريق المؤدي إلى الفينومولوجيا الترسندنالية حيث أمده

يبقى على استمرارية الفينومينولوجية إلى مالا نهاية¹ . فالفينومينولوجيا كما يؤكد مؤسسها (هوسرل) لم تكن مذهبا فلسفيا ، بل هي رؤية يختلط فيها المنهج بالموقف في رؤيتهما إلى العالم بصورة أخص وهي رؤية جديدة تماما ، لهذا كانت تتواجد على الدوام حيث العتبة ، فالفينومينولوجيا هي قبل كل شيء منهج ، و موقف للفكر موقف للفكر خاص بالفلسفة حاول هوسرل جاهدا تدمير الرؤية الموروثة عن الأفلاطونية حول المنهج و التي تم تورثها للديكارتية ، و تظهر بصورة واضحة لدى هيغل Hegel و حتى هايدغر Heidegger، إذ حاول الكل جعل من سؤال المنهج مجرد تأسيس لرؤية انطولوجية أي رؤية تتردد بين سؤال الكائن ، و سؤال الكينونة .

إلا أن فينومينولوجية هوسرل تعلن عن نفسها باعتبارها فلسفة بدون مطلق ، لهذا يطلق عليها اسم : "الفينومينولوجيا المحايدة" . لأن هوسرل يرفض كل أرثوذكسية ، و هو بذلك يسير قدما بالتفاعل مع المشروع النيتشوي ، إذ كليهما رفضا أن تكون فلسفتهم و ثنا فكريا ، تفرض على ورثتها نمطا معيناً من التفكير ، عبر التزامهم بمنهج معطى سلفا. لهذا نجد هوسرل يرتبط بفكر الأساس Fondement اللحظة التي لم يحصل لها الإنجاز بعد ، أي بقية كفكرة

2 F.Dastur, Husserl de mathématique à l'histoire. Op.cit. p25.

3 Husserl (E) : philosophie de l'arithmétique. Op.cit. p164

1 Voir Bégout (B) L'héritier hérétique Ricœur et la phénoménologie P.Ricœur : in revue Esprit Dossier sur Ricœur, 1997.

دلالة دون مضمون ، و لا يمكن إلا أن تكون مختزلة إلى مجرد قصد فارغ *intention vide* محروم من امتلاء الحدس. ذلك لأن الدلالات الجزئية *partielle*. لا يمكن أن تعرف وجودها في الحدس².

إن أصالة الرهان الفينومينولوجي يكمن في مدى قدرته على ابتكار منهج جديد منهج مستحدث كل الاستحداث ، مغاير تماما عن المنهج القائم في العلوم الطبيعية ، وهذه الدعوة هي تنبيه من طرف هوسرل إلى أن الفلسفة و إلى غاية فترته لاتزال أسيرة عدم التفريق بين منهج العلم ، و بين منهج الفلسفة . إذ منذ القرن السابع عشر كان الفلاسفة يصرون على ضرورة أخذ الفلسفة بمنهج العلوم الطبيعية ، كي تتمكن من إيجاد طريقها نحو الخلاص المطلق . فكان على الفلسفة كما يقول هوسرل : " السير على خطى العلوم الدقيقة فيما تتمكن بعد ذلك من صياغة هذه العلوم بمنهج جديد كل الجدة ، و جذري الذي يمكنها من إخضاع جميع العلوم بمنهج جديد كل الجدة ، و جذري الذي يمكنها من إخضاع جميع العلوم إليها ، عودة مجد الفلسفة لنا يكون إلا من خلال ابتكار المنهج الجديد ، منهج جديد بالقوة ، يعارض المنهج الطبيعي"³.

بالمفاهيم المؤسسة لها ، و التي على رأسها : مفهوم "القصدية". مفهوم "الحدس المحض" بقي مشدودا إلى أعمال برنتانو فيما يتعلق بالسيكولوجية الوصفية ، ثم أخذ هوسرل أسس مشروعه عن " ماينونغ " *Meinong* ، أبرز تلامذة برنتانو ، إذ كانت كتاباته الأولى مجرد صدى لأعمال هذا الأخير أما نظريته حول " الموضوع " فكانت بمثابة النظرية الوحيدة التي أعجب بها هوسرل إلى درجة أنها مكنته من إحداث تغييرا جذريا في وجهة النظر التي كانت حقائقها الجوانية غير متناقضة فيما بينها ، فالمربع الدائري غير ممكن لاستحالة الجمع بين المربعة و الدائرية . إلا أن المتعذر علينا تفكيره لا يمكن التفكير في وجوده ، و ما لا يمكن أن يوجد لا يمكننا التفكير فيه . كل ما هو قابل للمعرفة في ذاته ، و وجوده فيما يخص مضمونه هو وجود محدد... ففي الوجود في ذاته تتناسب الحقائق في ذاتها ، و هذه الحقائق تتناسب بدورها مع منطوقاتها الثابتة¹.

ففي "البحوث المنطقية" و بالأخص النصوص المكرسة لسؤال التجريد ، باعتباره المنهج الأكثر استعمالا من قبل هوسرل ، إنه ذلك الذي يفكر في اللاشيء *rien* قصد وضع القيمة الحقة للبداهة ، التفكير حول العدم الملازم لبعض الدلالات ، فعندما نقول : الدائرة المربعة ، نجد هنا دلالة ، لكنها

2 Husserl (E) : recherches logique ibid.

3Husserl (E) : l'idée de la phénoménologie op cit , p 48,49.

1 Husserl (E) : recherches logiques tome II , livre I , p105.

ما حقيقة "المنهج" الذي سعت
الفيينومينولوجيا ، و تحديدا فيينومينولوجيا
هوسرل إلى تحقيقه قصد التمكن من
التأسيس لعلم كلي محض ؟ طبعا لقد عمل
هوسرل على إتمام الفيينومينولوجيا باعتبارها
المنهج عينه ، أي منهج ايبستيمولوجي يصف
الكيفية التي من خلالها تنبثق المفاهيم ،
والمقولات المنطقية ، وتأخذ دلالتها الأساسية.

لكن ما العلاقة التي يمكن رصدها بين
أحكامنا و بين تجاربنا الإدراكية ؟ إن الأحكام
المنطقية و تجربة الوصف (الإدراك)
تحمل لدى هوسرل مرادفها ضمن الصياغة
المنهجية ، التي يطلق عليها قصد الكشف عن
الكيفية التي من خلالها يحصل إنتاج الحقائق
الجوهرية. إن فيينومينولوجيا هوسرل هي"
بالأساس معاودة منهجية للأصول نحو أصول
المعرفة.¹ الإسهام الجوهرية لهذا النوع من
الفيينومينولوجيا يكمن تحديدا في محاولته
الكشف المنهجي عن الكيفية التي تجعل المعنى
يبرز ويظهر ، وكيف ينبثق في وعينا بالعالم .

إن فيينومينولوجيا المنهج تمنحنا فرصة
الكشف عن المعنى في صلب تجربتنا المعيشة .
إنها (رأي التجربة) بمثابة تجلي الوعي المحض
فالتجربة البشرية ليست ماهية ل"شفافية-
ذاتية " auto-transparente أو لأننا محض
cogito pur. وإنما تمتد نحو شيء ما في العالم

1 Husserl (E) : philosophie première (1923-1924)
tome 1.critique des idées traduit par Arion Kelkel
Paris PUF1990voir l'introduction

إن فيينومينولوجيا المنهج تسمح للوعي فهم
اهتماماته الخاصة ، والتفكير في ذاته ، و منه
اكتشاف الأفق المتواري ، أو المهمل لقصديته
، بالإضافة إلى ذلك تجعلنا الفيينومينولوجيا
نمتلك القدرة على الإحاطة بكلية معنى
قصدي موضوع ما ،الذي قد يكون مقدما
ك" كنه "entité مجرد ، و معزول ، منفصل
عن أفاقه القصدي . من هذا المنطلق تعلمنا
الفيينومينولوجيا : " أن الوعي هو في آن معا
مرتبط كلية بموضوع تجربته ، وعلى الرغم
من كونه حر في أن يتصل بهذا الموضوع أو
ذاك لأجل إنجاز انعطافا نحو الذات نفسها.
و لأجل التركيز على مقاصد القصدي ، و منها
ينبثق الموضوع باعتباره مالكا للمعنى "² .

تمنح لنا فيينومينولوجيا المنهج بالإضافة
إلى كل هذا : "إمكان الكشف عن معنى
تجربتنا المعيشة ، فهي تظهر الوعي في أن
يكون دائما قصدي ، و ذلك في اتصاله
بمواضيع خارج عنه ، و بإمكاننا القول أن
وحدها فيينومينولوجيا المنهج قادرة على جعلنا
واعون بوجودنا في هذا العالم "³ . فهي (أي
الفيينومينولوجيا) لا تكتفي بمساءلة الأشياء
فقط ، لكونها ليست مجرد أسئلة موجهة
لمعرفة الشيء ، و إنما هي أسئلة عن الكيفية
التي يظهر من خلالها الشيء المتماثل أمامنا ،

2 Bégout (B) Husserl in introduction a la
phénoménologie dirigé par Cabestan (P) Paris
Ellipses 2003 p 14.

3 Levinas (E) , de la phénoménologie à l'éthique , in
revue Esprit , dossier sur Levinas n° p 122,123.

بحث حول الـ "الكيف" comment خاص بتخيل الشيء و الكشف عنه..

نجد هنا نموذجين أساسيين و بفضلهما يحصل اكتمالا لظهور ما يعطى إلينا : ظهور العالم ، و ظهور الحياة . ففيما يخص الأول فإن مجاله يراني extériorité محض ، الخارج عن الذات le hors-de-soi و هو كل ما نراه ، و ما يمكننا رؤيته .

انطلاقا من هذه الرؤية سيتم ترسيخ الاختلاف في المبدأ بين ما يظهر في العالم بما هو ظهور للعالم عينه. أما فيما يخص ظهور الحياة فإنه يتعارض وظهور العالم. فإذا كان كل ما ينكشف هو براني ، فإن الخط الفاصل الأول لظهور الحياة يكمن في أنها لا تظهر إلا لذاتها . فهي الظهور عينه . إنها الظهور بالذات auto-révélation ، كشف ذاتي . وهذا الأخير يبرز أمرين مهمين : الحياة ليست تقدما لا واعيا ، ذلك لأنها وحدها القادرة على إتمام العمل الأصلي للظهور ، و من جهة أخرى فإن الذي ينكشف في هذا العمل الكشف الذي يكتمل داخل الحياة هو طبعا الحياة¹.

لقد تعين المنهج إذا مشكلا قائما بذاته داخل الفينومينولوجيا الترسندنتالية الهوسرلية من الجهة التي تبينت فيها الفلسفة إمكانا للتفكير يتوسط معنى المنهج الذي تداول عليها التفلسف عموما . فالمنهج

الفينومينولوجي : "هو حركة النظر في إقباله على الأصول و قواعده . لأن تدير معنى المنهج في الفينومينولوجيا أمر يخص الشأن الفلسفي عينه ، وليس يخص انتظاماته الخارجية بالنسبة إلى موضوعات سابقة للنظر ، وقائمة بذاتها . لقد صار إذا المنهج هو الفلسفة عينها².

يطرح سؤال المنهج في الفينومينولوجيا فكرة البدء المتجدد أو البدء الجديد. إذ لا تعبر انتباها للمناهج المعتادة المطبقة داخل العلوم الوضعية سواء ما ارتبط منها بالعلوم الطبيعية، أو بعلوم الفكر. بل نجدها تقيم ضدها نقدا جذريا . بقدر ما تحاول التأسيس لمنهج محض. و لما كان الأمر كذلك رأينا أنه سيبقى سؤالاً مؤجلاً و مرجئ الإجابة بصورة دائمة .

لقد انتهت الفينومينولوجيا الترسندنتالية وهذا ما يؤكد عليه مصنف 1913 الذي يعتبر بمثابة بيان للمنهج داخل الفينومينولوجيا: "إلى موقف أساسي يكمن في الجمع بين نظرية الماهية ، والرؤية الطبيعية للعالم"³ إلا أن هوسرل ستعترضه بعض المشكلات الأساسية أهمها : عدم وجود إحداثية ثابتة للمنهج . و هذه الصعوبة صادرة أصلا عن صعوبة البدء في الفلسفة من حيث هي معرفة غير طبيعية ،

2 فتحي إنقزو : هوسرل و استئناف الميتافيزيقا ، دار الجنوب تونس 2006 ص

3 Husserl, idées directrices livre 1, voir considérations préliminaire de méthode de 63 à 75 , p 209 à 241.

1 Michel H, de la phénoménologie tome 1, Paris , Puf , 2003 ,p43

السالفة ، التي أضرت بالفلسفة ، إنه السير الدءوب نحو التأسيس لميتافيزيقا كعلم محض : " فكانط على سبيل المثال لم يتمكن من تحقيق ، هذا الحلم لكونه بقي يلزم أرضية العلوم التجريبية و العقلية ."² يتبين لنا أن مفهوم المنهج ينمو بصورة محايثة مع مضمون العلم، بتعيين الفينمينولوجيا علما بالظواهر لا يقصد هنا من المعنى الظاهرة ما هو مألوف ، و متداول الاستعمال في المعارف الموجودة ، لذا فالعلم الفلسفي بالظاهرة غير علم النفس .

هنا يبرز هوسرل فصلا جذريا بين الفينمينولوجيا ، والسيكولوجيا ، فصل بمثابة المبرر الأول الذي يؤكد عليه هوسرل في عمله ال "أفكار الأساسية" حيث نجده يدحض الآراء التي تحاول إلحاق فينومينولوجيا البحوث المنطقية بالسكولوجية التجريبية باعتبارها تختص بالوصف المحايث للمعيش النفسي . أي بالتجربة الجوانبه ، من حيث أن علم النفس هو علم صادر عن التجربة ، و مضمونه الوقائع النفسية . لن تكون الظواهر السيكولوجية إلا وقائع فعلية محايثة للوجود الحقيقي لذوات واقعية وفعلية هي أخرى . تنتمي كلها إلى عالم من حيث هو جملة الوقائع الموجودة ، و من هذا المنطلق بإمكاننا القول على أن المنهج يتعين محتواه النظري تعيينا مزدوجا :

إذ لا يمكن الحديث عن تأسيس نهائي للمنهج داخل المنظومة الفينومينولوجية . إلا إذا تم تحديد و الحسم في فكرة بدء الفلسفة ، لهذا ارتبطت أسئلتنا بالكشف عن حقيقة العلاقة الموجودة بينهما ، أي بالكيفية التي من خلالها يرتبط سؤال المنهج باعتباره من أبرز المشكلات الأساسية للفينومينولوجيا ب " بدء الفلسفة " . طبعا الصعوبة هنا خاصة بالفلسفة لا غير ذلك لأن المنهج في العلوم هو نتاج محصلة تعود و تراكم نتيجة التجربة التلقائية " إن الاعتبارات المنهجية في الفينومينولوجيا الترشدنتالية تفضي إلى صعوبة الناجمة عن مسألة المنهج في فلسفة عموما ، من حيث هي معرفة يتعين عليها استكشاف حقول النظر الخاصة بها ، وتجهزها مفاهيميا . أي التشريع لموضوعاتها تشريعا أصليا و أساسيا ¹ . فالفلسفة بحاجة إلى مقالة في المنهج وقواعده . إن فينومينولوجيا هوسرل بما أنها تريد أن تكون منظومة تأسيسية و أساسية للفكر تجد نفسها مخترقة من قبل جملة من التفاوتات ، ليس من السهل ضبطها مادامت تتخلل إيقاع الفكر نفسه ، بين إقباله اللامتناهي على التجربة بشغف أصيل ، و تعلقه الحميمي بالأصول و بالمنابع ، و بين حاجته لميتافيزيقا تقيم التنسيق و الانتظام .

فالفينومينولوجيا هي ابتداء لميتافيزيقا محضة تخلصت من كل الرواسب الفكرية

2Husserl(E) :philosophiepremière tome1,opcitp.164

1 فتحي إنقزو ، المرجع السابق الذكر ، ص

(1) يقوم بتحويل العلم من الوقائع إلى الماهيات ، وبتوجيه الفكر جهة العمومية الماهوية ، و ذلك هو معنى القرار المنهجي الأساسي .

(2) النظر إلى الظواهر في الفينومينولوجيا الترساندنتالية على أنها غير واقعية من حيث نوع وجودها.¹ إن فينومينولوجيتنا يقول هوسرل : " لا ينبغي أن تكون نظرية الماهوية لظواهر العالم الواقعية ، يمسها الرد الفينومينولوجي".² يمكننا التأكيد إذا أن المنهج في الفينومينولوجيا يرجع تحديدا إلى ممارستين متميزتين حيث يكون فيه الوصف معينا منذ الوهلة الأولى ، فمن جهة تعتبر الفينومينولوجيا العلم الماهوي eidétique الذي يضم شأنه شأن غيره كل علم ماهوي بواسطة الرد الماهوي. "وهي من جهة أخرى العلم الماهوي للوعي المحض تسعى من هذا المنطق إلى إقامة الرد الفينومينولوجي ، الرد المضاعف الذي يؤدي بالضرورة إلى نوع من التعديل لتجربة الأصلية التي نحملها يوميا عن العالم ، و عن دواتنا ، و أيضا كارتداد جذري للموقف الطبيعي".³ و لقد أكد جل الفينومينولوجيون من تلامذة هوسرل إن هذا الأخير لم يحاول

وضع مخططا نهائيا لتأسيس نظرية علمية محضة ، أو إقامة مذهب فلسفي مغلق . بإمكانه مضاهاة المناهج القائمة في مختلف العلوم التجريبية ، و لربما حتى العلوم المحضة . لهذا لن يكون معنى الفينومينولوجيا إلا مؤجلا قصد بلوغ الثبات على الأرض الموعودة التي وعد بها هوسرل الإنسانية ، و المتمثلة في أرض الفينومينولوجيا الترساندنتالية ، و هذا ما يبرزه تحديدا في عمله الأزمة Krisis.

لن تكون الفينومينولوجيا في نظر هوسرل مادة من مواد العلم ، أو من مواد الفلسفة ، وإنما هي العلم عينه ، والفلسفة عينها ، إنها العلم الصارم المؤسس من قبل رؤية جديدة لمفهوم المنهج ، حيث نجده لا يحمل الدلالة الحرية التي تأخذ بها العلوم الوضعية ، و إنما يحمل معنا استعاريا ، فهو الطريق الذي حينما نشقه نبدأ في السير قدما نحو الأفق اللانهائي .

بالإضافة إلى كونه طريقا غير معطى لنا سلفا ، و إنما يجب شقه و السير عليه . لهذا سيأخذ معنى المنهج داخل المشروع الفينومينولوجي دلالة التعدد و الإخلاف . لقد تمكنت الفينومينولوجيا حسب "لفيناس" Levinas من توحيد الفلاسفة ، لا بالكيفية نفسها التي قد نجد فيها الكانطيون متحدون داخل الكانطية ، ولا بالكيفية نفسها التي قد نجد فيها السبينوزيون متحدون في

1 Seron D introduction à la méthode de la phénoménologie Bruxelles Boeck université 2001 p45

2 Husserl (E) :I dées directrices , op cit p 87.

3 Seron D introduction à la méthode op cit p .39

الرؤية الطبيعية للعالم منذ أفلاطون إلى غاية ديكارت ، و من جهة أخرى رفضت النظريات التي على الرغم عمقها المتفاوت. إلا أنها مثلما ينهنا هوسرل سقطت في مأزق الانغلاق ، و هذا شأن العلوم الطبيعية.² و العلوم المحضة ممثلة في الرياضيات المتورطة في السيكلولوجية التجريبية .

فالفيينمينولوجيا من هذا المنطق لا تمنح لنا مذهب ، و إنما تحملنا إلى ما يمكننا نعتة حسب "جون توسان دوزانتي" Desanti بـ "التجربة" L'expérience الدالة على السير ، سير دائم لا يعرف له قرار ، و لا نهاية . أي أنه سير منفتح على أفق اللانهائي horizon Infini ، بحث باستمرار عن المعنى ، و عن المعرفة المحضة . ذلك لأن الفيينمينولوجيا هي بمثابة تحليل دقيق و صارم بقدر ما هي إمكان محدد من شبكات المعنى في تواصلها و اختلافها . فالمعنى يجد نفسه دائما مفتوحا مقيما بداخل موضع دال .

سيرتبط عمل الفيينمينولوجي إذا بإنجاز و أداء هذه الوضعية التي هي إلزام المعنى من جهة ، و فرار المعنى من جهة أخرى . ففي اللحظة التي نحقق فيها معنى ما ، ترغمنا الفيينمينولوجيا على الفرار من الفيينمينولوجيا ذاتها. ذهابا و إيابا ، حركة

2 Depraz N, Husserl , in gradus philosophique sous la direction de Paris , Flammarion 1996 , voir aussi Husserl : la philosophie comme science rigoureuse , traduit de l'Allemand par Paris , PUF, 199.

السبينوزية. إن الفيينمينولوجيون لا توحدهم الاهتمامات نفسها ، فالقضايا التي شغلت ذهن هوسرل المؤسس، ليست نفسها المتواجدة لدى تلامذته. فحتى و إن تعلقوا بهوسرل فليس من موقع الجعل منه عقيدة دوغمائية. و إنما لإنجاز أسئلة جذرية حول فكره ، قصد تجاوز لحظته الفلسفية . و لا يعنى التجاوز هنا وضع حدا فاصلا أو نهائيا لفكرة ما ، وإنما هو بمثابة مواصلة هدف الاكتمال و التحقيق: "إن الفيينمينولوجيون لا يدعون أبدا انتماءهم أو ولاءهم المطلق لفكر المؤسس. ولأن الفيينمينولوجيا نفسها ، و في جوهرها ترفض مثل هذا الادعاء . ان الفيينمينولوجيا بارز و صارم . جوهرها مفتوح حيث نجدها تتفتح على اهتمامات لا محددة داخل حقول معرفية مختلفة ، وتطبيقاتها المنهجية بإمكانها أن تشمل العديد من المعارف¹ فالفيينمينولوجيا المؤسسة من طرف هوسرل نشأت وصفية ، و صارت بعد ذلك ترسندنتالية محضة ، و بين هذا و ذاك حاولت وضع حدا للمعنى المنهج في معناه المعتاد والمعمول به داخل العلوم الوضعية ، خاصة العلوم التجريبية .

عرفت الفيينمينولوجيا ميلادها "باعتبارها كشف لكيفية جديدة للتفلسف الذي يقطع من جهة و بصورة جذرية مع

1 Levinas (E) , technique de la phénoménologie , in en découvrant l'existence avec Husserl et Heidegger , Paris , J, Vrin 1946.

المشروع الفينومينولوجي لم تكن سوى البداية . من هذا المنطلق صار سؤالنا المركزي يتحرك وفق هذه الاستنتاجات ، لقد تعينت الفينيمينولوجيا و منذ الوهلة الأولى باعتبارها عين المنهج فالفينومينولوجيا تتطابق والمنهج .

فإذا كنا ننكر عل الفينومينولوجيا امتلاكها لمنهج متعين ، فإن هذا الأمر لا يجعلنا نمتنع عن إيضاح عناصر تطبيقاتها المكرسة من قبل مؤسس الفينومينولوجيا نفسه ، ذلك لأن المنهج عند هوسرل يعتمد كلية " على العناية بموضوعات المعرفة ، بل يركز أساسا على وصفها للصورة التي تنعطي بها ك"مقاصد" intentions محضة . و بدورنا نعتقد أن البدء في التفكير في إقامة المنهج عرف ظهوره بشكل واضح مباشرة بعد إنجازه لعمل 1907 الموسوم ب"فكرة الفينيمينولوجيا".

يبرز المنهج في الفينومينولوجيا في بداية الأمر باعتباره وصفا ذاتيا تجريبيا إذ و منذ الوهلة الأولى تحدد كند للطبيعانية Naturalisme و للمعرفة الطبيعية ، فهو ينجز وصفا للموقف الطبيعي لما يظهر مباشرة في العالم ، و لما كان هذا الوصف للعالم من حيث الدلالة هو وصف لتجربة الأنا ، محققة من طرفه ، فهو إذا وصفا ذاتيا تجريبيا. لكن ما نكشفه بعد هذا الوصف أن هوسرل لم يرتاح له بعد أن عرف هيمنة شبه كلية في البحوث المنطقية ، نظرا لقربه طبعاً من أستاذه "فرانز برانتانو". إلا أن الوصف لم يكن كافيا لتحقيق الوثب

مستمرة لا تعرف لها نهاية محددة. هذا ما جعلنا نؤكد على عدم إمكان تحديد المنهج باعتباره المحدد لطبيعة الموضوع ، والسائر نحو غاية معينة ، إنها يقول دوزانتي بعيدة كل البعد عن مذهبية ، إنها تمارس فوق الركام Tas¹.

ليست الفينومينولوجيا بناءا للظواهر في الشيء ذاته ، و إنما هي كما يشير ليفيناس : "رد الأشياء في ذاتها إلى أفق ظهورها ، و جعل الظاهرة نفسها تظهر ، وراء ماهية الظهور كان الظاهر يستر نماذجه ، دون أن يسلمها طواعية لأول رؤية ، هذا ما يتبقى عندما تكف عن جعل القصيدة نظرية ، إذ الشرط الجوهرى لكل رؤية فينومينولوجية مرتبط بـ كلية بحضور الحياة الترسندنتالية بالذات ، أي للحاضر الحي ، و الدال بالإضافة إلى ذلك على القرب بما يمثل موضوع الحدس² .

لا تمتلك الفينومينولوجيا إذا رؤية نهائية عن المنهج ، فهي لا تعتقد بوجود منهج معطى بصورة سابقة عنها ، و لن يكون لها أبدا منهجا . إذ لو سلمنا بوجود ذلك ، فإننا سنتورط في الانغلاقية المذهبية و هذا ربما ما جعل هوسرل و إلى غاية آخر أيام حياته يؤكد أن كل ما قدمه من أعمال داخل

1 J.T.Desanti : la phénoménologie sur le + Tas propos recueillis par Vincent Gérard , dossier sur la phénoménologie in magazine littéraire n° 403 , Novembre 2001, p 39.

2 Levinas (E) : dieu qui vient à la penser , Paris , J.vrin 1996 , p 140.

، و القيام بتجاوز التخمينات ، و الافتراضات وإنما كان عليه امتلاك ممارسة نقدية صارمة للمعرفة .

فالأمر لم يتوقف عند حدود وصف الظواهر ، والبحث عن إمكان تفسيرها و حسب ، و إنما صار من الضروري السعي لأجل فهم عمق صلاحية المعرفة . إن إسقاط الضوء على المعيشات المعرفية تدرك في ذاتها ضمن بنيات جوهرية ، و هذا ما يطلق عليه اسم : " فهم فعل المعرفة " . هنا تبرز قوة الإرجاع الفينومينولوجي الذي نعتقد بأنه يمثل المحطة الثانية المهمة للسير نحو إتمام الفينومينولوجيا الترسندنالية ، بعد أن أثبت الوصف المنجز داخل منهج القصديّة عجزه . بحيث صار من المتعذر عليه فهم المعيش من وجهة نظر السيكلوجية في علاقته بدواخلنا . مثلما يحدث في التجربة الجوانية و المرتبطة أساسا بمواضيع اعتقادنا .

فالإرجاع الفينومينولوجي لن يعرف انطلاقته إلا عندما يقوم بفهم هذه الاعتقادات . لكنه إذا كان يقدم المعيش بصفة لا مدركة ، و لا مفهومة ، فإن السؤال الذي يطرح كما يشير إلى ذلك " فرانسوا لافين " J.F.Lavigne هو إمكانية معرفة من هنا فصاعدا عما نحن بصدد البحث عنه تحديدا ، قصد التمكن من معرفته¹ .

1 Lavigne (J.F) , la méthode de la phénoménologie , in de la phénoménologie Tome I , Michel Henry , Paris , PUF, 2003, p168

لقد حول هوسرل مجهوده نحو البرهنة على أن المعرفة السيكلوجية العادية تباشر عمل المفاهيم و الماهيات لأجل نظام آخر غير متواجد في الطبيعة ، و أنها تمتلك حدسيا هذه الماهيات المحددة كحقل بحث جديد . غير أن الأمر لا يتعلق نهائيا بتحديد حدس الماهية ، و ذلك بوضعها موضع البداية و بالكيفية نفسها حيث يحدث لها الاكتمال ، فبعيدا عن الاهتمام بالحدس الماهية يظهر المنهج في الفينومينولوجيا باعتباره تحليلا لما هو قصدي ، غير مكثفيا بتحليل المعطيات المتماثلة أمام الإدراك بصورة مباشرة ، معتمدا على المعرفة أساسية : كل وعي هو قصد لشيء ما ، قصد يصير أكثر مما هو عليه ، أي دائما في تألق باحث عن أفق جديد ، ها هنا يظهر المنهج داخل الفينومينولوجيا في أوج اتساعه مبرزاً طموحه في أن يغدو كل موضوعية متقومة ثلاث نموذج ماهيتها² .

و هذا ما جعلنا منه بمثابة اللحظة الثالثة التي تجعل من الفينومينولوجيا الترسندنالية موضعا للممارسات والتطبيقات على المواضيع التي حدث نسيانها من قبل الفلسفات الكلاسيكية . تحديدا من طرف العلوم الوضعية مثل مشكلة عالم الحياة و الجسد ، و الآخر...إن كل حياة الوعي مهيمن عليها من قبل قبلي مؤسس كليا و من خلاله يكون الفحص عن المهام الأولى الموكلة إلى

2 Michel H , de la phénoménologie , op cit p180

التجريبية ، ذلك لأنه (أي منهج الفلسفة)
يمتنع عن أن يكون قريب من منهج الفحص و
الكشف الخاص بالعلوم الطبيعية ، ولا حتى
بالعلوم الرياضية المشتغلة على منهج البرهنة
. فالأمر لا يتعلق بالنسبة إلى هوسرل: "يجعل
الفلسفة علمية ، من خلال أخذها بنموذج
العلوم التي سبق و أن حصل لها التأسيس)
بالمعنى الذي يتحدث عنه المشروع الكانطي
من خلال الثورة الكوبرنيكية) ، و إنما فضلا
عن ذلك العمل على فهم الفلسفة التي
تؤسس انطلاقا من ذاتها فكرة العلم² ، دون
أية استعانة بأي حقل أو مجال معرفي آخر .

هذا ما يمكننا أن نطلق عليه اسم
الفلسفة الكلية أو الفلسفة الأولى . هنا
بالذات تكمن أهمية أعمال هوسرل ، فالمنهج
الذي عمل على تأسيسه لا يقيم أسسه و
مبادئه إلا من داخل الفلسفة عينها ، و لقد
تمكن هوسرل من تقديم رؤية مغايرة لمفهوم
المنهج عندما جعل منه عين الفلسفة ، أي
المتطابق مع الفلسفة . موجد داخل هذا المنهج
الكلي مناهج مختلفة: منهج القصدي ، منهج
الإرجاع ، منهج الأبيوخية و منهج التقويم .
لهذا رأينا أن فينومينولوجيا المنهج هي ميتا-
منهج *méta-méthode* أي المنهج في تعدده
. المنهج الذي يسمو بالمفاهيم الفلسفية
إلى المعرفة القبلية الأصلية و إلى المعرفة
الجوهرية ، فإذا كانت الفلسفة تطمح إلى أن

الفينومينولوجيا الترشدنتالية . إذ كل وجود
موضوعي و كل حقيقة تجد أساسها بداخل
ذاتوية ترشدنتالية محضة ، أو ما يطلق عليه
هوسرل اسم البينذاتية *intersubjectivité*
حقيقة مرتبطة بالذاتية عينها . لحظتها
ستظهر الفينومينولوجيا كإيضاح لكل ممكنا
من الوجود . و من خلال هذه الرؤية يكون
هوسرل قد أنجز حركة انتقال جذرية سارت
بالفينومينولوجيا إلى تصير اسما للمنهج ، أي
الفلسفة العلمية .

فإذا أنجزنا فهما سليما عنها فإنه بإمكاننا
لحظتها القول بأنها المفهوم عينه للمنهج
، غالبا ما ارتبط طموح الفلسفة بدراسة
الموجود (*étant*) ، فهي تعمل ذلك ليس من
موقع الرغبة في اكتساح المواقع ، و امتلاك
الحق والحقيقة بإدعائها القدرة المطلقة على
الخوض في جميع المعارف دون استثناء ،
"الفلسفة منذ أرسطو تحددت و تعينت أي
كان لها موضوعا الخاص من الناحية الصورية
، إنها علم الوجود. فالمهمة الأساسية للفلسفة
صارت مرتبطة بمدى قدرتها على التأسيس
للفلسفة بما هي كذلك (أي فلسفة) و فقط.
عندها تصير معرفة قبلية بالكائن أي تؤسس
يقينيته ، إنها مهمة لا تنفصل إطلاقا عن
المهمة التقويمية " *constitutive*¹.

طبعاً لم نؤكد على إمكان إحداث تقارب
بين المنهج الفلسفة ، و باقي المناهج الوضعية

2 Husserl (H), l'idée de la phénoménologie op cit p 51.

1 Seron D introduction à la méthode op cit p 32

الفينومينولوجيا و هي تأخذ بالتجربة أن تكون مذهباً ممكنًا².

تكون علماً للكائن بما هو كذلك ، ألن يكون لهذا النزوع في الاتجاه بداية نحو الخصوصية ؟ إن هذا السؤال مرتبط في الواقع بإمكانية إقامة معرفة فلسفية أصيلة ممكنة ، أي التحديد القبلي الكلي لكل كائن. إن السؤال الذي حرك و فعل الفينومينولوجيا و جعلها تظهر ككيفية لإستعابها أولاً ، و كتوجه نحو تنويع مشروع الأصل الذي لا يزال قيد التردد بين التحقق و اللا تحقق المؤسس من طرف هوسرل¹.

لم يكن هوسرل في تصورنا إلا الفيلسوف الذي و بعد ديكارت ، و كانط منح لنا فرصة إمكان إتمام تطور العقل في الاتجاه نحو الفلسفة ترفض أحكامها الدوغمائية ، لهذا لا تكتفي الفينومينولوجيا بمهمة التطوير من منهجها واكتشاف أنواع المعرفة الجديدة المناسبة بدورها لنوع جديد من المواضيع ، و إنما تسعى جاهدة لأجل خلق الوضوح الكامل ، كي تتمكن من تحديد معنى و قيمة المنهج الذي يسمح لها بالوقوف قبالة الانتقادات الصارمة ، و الجادة . هنا يكمن امتحانها الذي يمكنها من الثبات و السير نحو الأرض التي وعد بها هوسرل : "التأسيس لفينومينولوجيا ترسندنتالية محضة ، و هذه الأخيرة كما يشير هوسرل لا يتم إقامتها بصورة مباشرة بالجعل منها مذهباً فينومينولوجياً للماهية . و إنما محاولة القيام بالبحث ما إن كانت

2 Husserl (E) : problème fondamentaux de la phénoménologie traduit de l'Allemand par : J-English , Paris , PUF, 1991 , p 86.

1 Seron introduction à la méthode ...op cit p.105